



المعلم وسؤال الاعتبار؟

الحافظ بَشْرَى

سؤال المشروعية؟ أو مشروعية هذا السؤال تجد راهنتها في ضوء أدبيات التربية الحديثة التي نادى دوما بإعطاء المتعلم أهميته التي يستحقها في ضوء منظومة التربية والتكوين، باعتبار مدارها حوله حيث الجهود تبذل والبرامج تحاك وتصاغ وفق احتياجات المتعلمين واهتماماتهم.

بيد أن هذا المتعلم تعرض تاريخيا لحيف لم يستطع التخلص منه إلا حين تحركت التربية صوب البحث عن المستهدف منها فوجدته هو فأحلتها مكانته اللائقة التي تتناسب والمفاهيم الحديثة المتداولة في الساحة التربوية التي تعتبر المتعلم رأس الأمر وعليه وجب الإنصاف ولو بشق كلمة.

التحديد المفاهيمي

المتعلم :

المتعلم كائن قادر على امتلاك معرفة الأشياء، أي تعلم الربط بين الأشياء، وهذا يعني قدرته على إقامة علاقات بين مختلف عناصر المعرفة «المتعلم الحكيم»¹.

ولقد استعملت كلمة «متعلم» على الخصوص من طرف الاتجاهات البيداغوجية الحديثة، لأنها توحى ضمنا بإمكانية الفرد في التعلم الذاتي والمبادرة الشخصية².

حيث ينتقل هذا الفرد المتعلم من حالة إلى أخرى وفق معايير محددة ومقاربات متعددة: سيكولوجية، سوسولوجية، سوسيوثقافية..... وعبر أزمنة تعليمية مختلفة، وحسب مراحل نمائية مختلفة³.



التلميذ

هو المتقبل لعملية التعليم والمستفيد منها⁴.

والتلاميذ هم مجموع الأفراد الذين يختبرون ما اختاره المربون ومن ورائهم المجتمع لنموهم من معارف ومهارات وميول خلال التربية المدرسية.

ويستعمل هذا اللفظ في المغرب في المراحل الابتدائية والثانوية⁵. ورغم وضوح وبداية الصفة والمهمة المنوطة بهذا الفرد فإنها تخضع لمجموعة من التغييرات الاجتماعية والقانونية المؤسسية وكذا نظرة الفرد لذاته كتلميذ⁶.

الاعتبار

الاعتبارُ : الفرضُ والتقديرُ .

يقال : أمرٌ اعتباريٌّ : مبنًى على الفرضِ .

و الاعتبارُ الكرامة ، ومنه (في القضاء) : ردُّ الاعتبار⁷

التربية والتعليم من سوء الفهم إلى البديل ؟

لا ينحو اثنان منحيان مختلفان وهما يطلان إطلالة سريعة، من خلال التجربة والإطلاع بالطبع، أن ثمة شيئا ليس في مكانه أو فهم على غير قصده؟ الأمر يتعلق باختزال التربية والتعليم في مهمة آلية روتينية صرفة جافة غير مفعمة بمعاني التربية على الحياة والتعلم.

وهنا لست أختلف مع من يتنادون بالعودة إلى البحث في ردهات الفصول الدراسية وما يجري فيها، حيث الصورة تبدو أكثر قتامة ولربما تعكس صراعا داخليا غير منظور ومتناقض تماما لوصفات المنتوج المنتظر، ولعل من أبرز تجليات ذلك في فصولنا الدراسية:

- إساءة الاعتبار للمتعلم.
- التلقين ونواتجه.
- العنف وتشكيلاته.
- الاقصاء وعناوينه

وصولا إلى الطرد من الحصة الدراسية صوب مستقبل مجهول في فضاء يفترض فيه أن يكون حاضنا فأضحى لافظا.



وإذا أردت أن أعزو أسباب هذه الحالة التي تتخبط فيها مؤسساتنا التربوية المدرسية فإن ذلك لا يخرج عن:

غياب ثقافة مدرسية تركز على فقر معرفي واضح فيما يتعلق بأعمال منظرين كبار في المجال التربوي،الذين خصصوا حياتهم للتدقيق في البحث في شخصية المتعلم واقتراح بدائل حلول عملية تعج بها كتاباتهم التي تنتظر من يقرأها ليعمل بها؟.

عدم وجود ملامح نواتج للتكوين الذي يتلقاه الطالب الأستاذ طيلة سنة دراسية تكوينية بالمراكز المعدة لهذا الغرض،وذلك يتجلى في طبيعة التعامل ليس مع المتعلم فحسب،بل تتمظهر تداعياته على المستوى الاداري والعلائقي كذلك.

اعتبار المتعلم عنصرا وجب الحذر منه، ومن هنا تتأسس ثقافة اللااعتبار وتبرز في المواجهة والاعراج من الفصل.

اختزال مهمة التدريس في تلقين دروس(مضامين معرفية)دون استحضار لشخصية وهوية المتعلم.

ألا يبدو من كل هذا أننا جانبنا الصواب في كثير من الأشياء وإن خشيت القول في كل شيء لأنني لم أرد أن أكون هداما أو محبطا لأنه يبقى بصيص من الأمل نتشبت به بين الحين والحين ولربما هو الذي دعانا إلى الاستمرار رغم كل شيء.

الاختيار البيداغوجي وسؤال اللاتوفيق؟

يظل الرهان البيداغوجي أحد المفاتيح الأساسية للتربية في أي بلد من البلدان،حيث على ضوئه ترسم طبيعة الاختيارات والتوجهات الكبرى المنتظرة من حقل التربية والتكوين،ومنه تستمد صفات ونواتج التعلم المراد.

وهنا وجب التذكير بالاختيارات الكبرى التي اختارها المغرب لمنظومته التربوية،حيث بدأ ببيداغوجيا الأهداف التي كان لها من الايجابيات وعليها من السلبيات ما عليها،وليس هذا يعني أنها ليست صالحة بالمرّة كما يروج لدى البعض،بل ربما في تلك الحوالك من الفترات اعتبرت أول وآخر شيء يمكن الاعتماد عليه.

ثم تلتها فيما بعد ما يعرف ببيداغوجيا الكفايات،تلك التي كان مجيئها يثير الكثير من التساؤلات حول المشروع البيداغوجي الجديد الذي سينخرط فيه المغرب،وهل هو قطعة



مع الماضي (بيداغوجيا الأهداف)؟ وغيرها من التساؤلات الكثيرة والعميقة والتي اضطرت معها الجهات الوصية إلى بذل الوسع قصد استوضح ما يمكن ايضاحه وإزالة الغبش الفكري المتمحور حولها، لتأتي فيما بعد مرحلة الكتابة حول هذه البيداغوجيا من طرف المتخصصين والمهتمين وإذاك بدأت سحب هذه الكفايات تنقشع، ومع أولى تباشير هذا الانقشاع بدأت تتساقط الأسئلة هنا وهناك، وهو ما استدعى الجهات الوصية لتكوين مكونين في هذا الباب، الذين تصدوا لمختلف هذه التساؤلات عبر تكوينات وطنية وجهوية وإقليمية ومحلية خصوصا وأن هذا الخيار واكبه تغير على مستوى البرامج والمناهج وهنا لا بد أن تتبدل الرؤى والتصورات.

سنوات بعد ذلك مقارنة من رحم الأم (بيداغوجيا الكفايات) تولدت بعد مخاض عسير أطلق عليها بيداغوجيا الإدماج رصد لها ما رصد، وأعد لها ما أعد، وتم تنزيلها قوبلت بالرفض لدى البعض ولقيت استحسان البعض الآخر، مما حدى بالقائمين على الشأن التربوي إلى إصدار مذكرة وزارية تحت رقم x03712 بتاريخ 16 فبراير 2012 في شأن بيداغوجيا الإدماج تضمنت :

- الاحتفاظ بها في السلك الابتدائي مع إعطاء صلاحية للمديرين والأساتذة من أجل اعتمادها.
- إرجاء العمل بها في السلك الإعدادي والثانوي إلى حين تقييمها في الابتدائي.
- توقيف جميع عمليات التكوين المرتبطة بها.

وهكذا يتمظهر العبث بعينه بحيث أن هذه المذكرة لم تأت إلا حين تم تكوين الأساتذة فيها وتوزيع العدة البيداغوجية المتعلقة بها وكذا العمل بها في الفصول الدراسية ، وعلى حين غرة وبجرة قلم يتم إيقاف كل شيء مما يزيك القول باعتبار المتعلمين (...). حقا للتجارب وكذا صورة للاعتبارية التي نبرز بعضا من تجلياتها عبر هذا المقال.

وقد استغرب كثير من المهتمين سرعة اتخاذ مثل هذا القرار في سياق زمني بيداغوجي غير ملائم (وسط السنة الدراسية) وانطلاقا من مبررات أقل ما يمكن وصفه بها، أنها غير تربوية ولا بيداغوجية، ودون اقتراح ما يمكن أن يسد الفراغ الذي خلفه هذا القرار لأن «...» حذف بيداغوجيا الإدماج وهي ليست سوى استراتيجية تدريسية-ينبغي أن يواكبه تصحيح أو تعويض. إلا أن التساؤل الكبير ينحصر في شكل هذا التعويض عندما يتعلق الأمر بطريقة تعليمية وليس بفلسفة تربوية...» 8



مما أفرز لنا وضعا تربويا أقل ما يمكن وصفه به أنه شاذ، حيث نجد داخل المؤسسة الواحدة تخبطا واضحا ضحيته متعلم يدخل لدى مدرس يعمل ببيداغوجيا الادماج (في الأسابيع المخصصة للإدماج) وآخر ينكر على الآخر تبنيها وضياع الوقت في العمل بها، فيتساءل المتعلم ولا من يجيبه؟

في الوقت الذي كان فيه على القائمين أن يدركوا أن أي خيار بيداغوجي يأتي ليجيب عن أسئلة المتعلم؟ لا أن يضعه في حيصبيص من أمره؟.

متعلم تائه؟

قد يكون مقبولا أن تكون تائها في شوارع وأزقة، لأنك لم تمر بها يوما أو لربما حللت بها زائرا، ولكن ليس من المقبول أن تكون تائها وأنت متعلم، لأن المتعلم يشق طريقه صباح مساء إلى فضاء المدرسة ليتعلم كيف يشق طريقه في حياته ولا يتيه وسط فضاء كونه، لأنه يأخذ قسطه من العلم الذي به يُسأل وبه يُجاب.

- وعليه لنا أن نتساءل؟
 - لماذا يحس المتعلم بالغرابة في التربية (منظومة التربية والتكوين في المغرب)؟
 - لماذا يستشعر المتعلم نقصا؟
 - كيف السبيل إلى التوجيه والارشاد بدل التيه والضياع؟
- تبقى هذه الأسئلة مشروعة ومُشرَّعةً لكل متتبع للشأن التربوي يحيلنا على البديل عسانا نتوفق في الاختيار ونعيد الاعتبار لمتعلم ظل سؤاله مشروعا ولا يزال.



الهوامش:

- 1- محمد بوبكري «المدرسة وإشكالية المعنى»، السلسلة البيداغوجية 6 مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء- الطبعة الأولى ص:79.
- 2- عبد الكريم غريب «المنهل التربوي»-الجزء الأول-منشورات عالم المعرفة، الطبعة الأولى ص:69.
- 3- مقال تحت عنوان «المتعلم والمدرسة أية علاقة» للأستاذ:المصطفى الحسناوي مجلة دفاتر التربية والتكوين، منشورات المجلس الأعلى للتعليم ص:21.
- 4- المعجم الموسوعي لعلوم التربية. د. أحمد أوزي مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء- الطبعة الأولى ص: 112.
- 5- معجم علوم التربية، عبد اللطيف الفارابي وآخرون، ص:104 سلسلة علوم التربية. العدد 10-9 الطبعة الأولى 1994.
- 6- مكونات الفعل التربوي: تلميذ مدرس معرفة. عبد الرحيم الضافية، ص:155 منشورات صدى التضامن، مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء- طبعة 2006.
- 7- http://www.almaany.com/home.php?language=arabic&lang_ اعتبار عربي&word=name
- 8- جريدة المساء، الملحق التربوي، العدد 1725 بتاريخ 10/04/2012، حوار مع الباحث: عبد الكريم غريب ص: 21.